

## العقل المتحرر

إن كل عناصر الحكمة والتعاليم الداعية إلى مبادئ الدين ومكارم الأخلاق يمكن اختزالها بعبارة واحدة هي "سعة الأفق". فالفكر يثمر العمل، والعمل يؤكد مستوى الفكر، وكلاهما يؤلفان الحياة.

إن رغبتَ في أن تكون الحياة حلوة فما عليك إلا اختزان العسل في خلايا الفكر. المنطق والسحر لا يلتقيان في عقل واحد في نفس الوقت. فالذي يدعى سحراً بالنسبة للمتفرج هو منطق للساحر. وما يبدو تغييراً سحرياً في الحياة بالنسبة للآخرين هو تطبيق منطقي للعقل السليم بالنسبة للشخص الذي يعيش حياة منطقية وسليمة. الفكر المتحرر هو فكر مبني على أسس العقل. وبما أن مجال الفكر لا حد ولا حصر له، هكذا لا حد ولا حصر لأفق العقل واستخداماته.

فمن يتقبل الإنطباعات دون أن يسمح لها بأن تغطي عليه وتقتل فيه روح الأصالة..  
ومن يمتلك عمقاً في ذاته دون أن يستثني الآخرين من دائرة حياته..  
ومن يقدر الإستحقاقات دون أن يغفل تقييمها أو يتخاضى عن قيمتها الفعلية..  
ومن يحترم وجهة نظر الآخرين وفي نفس الوقت يؤمن بوجهة نظره ويتمسك بها..  
ومن يتقبل آراء الغير لكن ليس دون غريبة وتمحيص..  
هو بحق صاحب عقل منفتح وفكر متحرر، وباختصار هو واسع الأفق.

الأفق الواسع راسخٌ لكن ليس وحيد الجانب..  
متدرجٌ في مراحلهِ لكن ليس مملأً في نوعيته وتنوعه..  
مثيرٌ في تأثيره لكنه ليس ضعيفاً في ردود أفعاله.

هدفه الخافي والبادي، وكوكبه المتألق الهادي هو الخير الأعظم لأكبر عدد ممكن من الناس.  
ومقبض دفة سفينته هو الثقة بالنفس والإتزان.  
وطريقه هو الأقل عناداً ومشاكسة.  
وشرعته وشراعه هو الإبتحاح على حقائق الحياة.  
والرياح التي تدفعه هي الإرادة الصلبة والطيبة.  
والأنشودة التي تتردد في أرجائه هي أنشودة مشاركة الآخرين مشاعرهم والتعاطف معهم.  
والتعبيرات البادية على محياه هي نظرات الإلفة والمودة نحو الجميع.

سعة الأفق هي سمة الشخص الذي يكره الحواجز التي تفصله عن الآخرين.  
الذي يعارك ويصارع وفي نفس الوقت يأبى التزمت أو التخندق في جحور العادات والتقاليد البالية.  
الذي يطلق التحدي ويقابل خصمه في الميدان وجهاً لوجه مثلما يفعل النبلاء،  
ويشرع في النبلاء الحسن لتبرير ما يؤمن به ويعتبره الصواب.  
وإن تغلب على خصمه، يبتسم الخصم لأن المعركة كانت مع إنسان شريف ولا يعتبر نفسه مهزوماً في حين من يخسر المعركة مع شخص ضيق الأفق يشعر بمرارة الهزيمة لأن الصراع لم يكن مع إنسان كبير بل مع شخص صغير.

هناك أناس يبنون حولهم جدراناً وقيمون حواجز، وهناك من يهدمون تلك الحواجز والجدران.  
البعض يحول الأرض إلى مرافق مجزأة في حين يحول البعض الآخر نفس الأرض إلى منتزهات خضراء باسمة.  
هناك من يعيش في الهواء الطلق ولا يرى أبعد من أقدامه. وهناك من يعيش داخل بيته ومع ذلك يبصر أطراف الأرض وأقاصي المعمورة.

هؤلاء نوعان من الناس، لكل منهما تفكيره ونظراته الخاصة ونشاطاته التي تختلف تماماً عن نشاطات ونظرات وتفكير الآخر.  
أحدهما يؤمن بالتقييد والتضييق والآخر بالتمدد والإطلاق.

كلاهما على حق من وجهة نظره الشخصية، إنما قد لا يكونان على صواب إذا بقيا مفصولين انفصالاً دائماً عن بعضهما البعض.

الحاجة تمس لكليهما في العالم.

كلاهما دعم للآخر. فالمدينة لا يمكن أن تتألف من الأبنية وحسب، ولا يمكن أن تكون شوارع ليس أكثر، أو فضاءات لا غير.

فالمباني ضرورية لتكوين المدينة، تماماً كالمساحات الحرة والشوارع والمنتزهات.

بناء الجدران وهدمها كلاهما ضروري لتطوير المدينة وتحسينها. وتلك هي الحال مع ذوي الأفق الواسعة والضيقة.

ذوو الأفق الواسعة وذوو الأفق الضيقة موجودون في هذا العالم وربما سيتواجدون فيه حتى نهاية الزمن، وللغرابية الحاجة تمس للفئتين معاً.

فلولا ضيق الأفق لما عرفنا سعة الأفق، لأن الضد بضده يظهر.

كل شيء نسبي في هذا العالم. وعندما يمحي ضيق الأفق مرة وإلى الأبد من هذا الكون سيتلاشى الكون كما نعرفه من سفر الوجود، ويتحول إلى كون آخر لا قدرة لنا على شرحه.

الكون حزمة من الأضداد.. أب وابن، زوج وزوجة، رب عمل وعامل، حكومة وشعب، بعد وقرب، ضوء وظلام، خير وشر، طول وقصر، صعود وهبوط.

إن فكرة واحدة دون الأخرى لا معنى لها. فإن أقصبت الواحدة تفصي الأخرى معها أيضاً. لكن هناك روعة مدهشة في وجود الضدين الأبديين: الخير والشر. فمن يقوى على القضاء على كل الشر أو كل الخير في العالم فسيتم القضاء على كليهما معاً، وفي كلا الحالتين ستبزغ حقيقة جديدة هي المطلق اللانهائي الذي يفوق ما تعودنا على إدراكه بعقلنا المحدود على أنه خير أو شر. فالقضاء على النسبي هو بلوغ المطلق. هذا لا يعني محق الكون أو الإنسان الذي يعيش فيه، بل يعني التخلص من النظرة النسبية المحدودة للحياة.

لا يمكننا فهم أو استيعاب الحالة المطلقة أو التعبير عنها بكلام القاموس البشري المحدود. الخطان المتوازيان يلتقيان في اللانهاية، وهكذا تصوراتنا وأفكارنا عن الخير والشر.